الشعر الجاهلی فی حقیقته مدح

الدکتور شاکر العامری

أستاذ مساعد بجامعة سمنان

و

مهدی طاهری

(از ص ٤١ تا٥٨)

الـخلاصة :

إنّ بین المدح و سائر الأغراض الـشعـریـة علاقات ووشائج. فالمدح بین هـذه الأغراض أصل وبـقـیـة الفنون الأخری، فی الواقع، فرع لـه و د اخـلـــة فیـه. فـإنّ الفخر الفردیّ مبعثه إعجاب الشاعر بنفسه، وادّعاؤه تفوّقه علی من حولـه وهـذا الفخـر یکون، بطبیعته، قبلیّاً تسیطر علیه روح حـمـا سیّـة جـا رفـة. والرثـاء نوعـان؛ فـردیّ خاصّ وقَبَلیّ عامّ. والأوّل أصدق نوعَی الرثاء، وأعلقهما بالنفس، وأقربهما إلی الفطـر ة والطبع. وشاع فی الرثاء القبَلیّ العام البکَاء علی أبطـال الـقـبـیـلـة، والقبـول بالقـدر المقدور. وکان الغزل فی العصر الجاهلی علی ثلاثة أنماط: الغزل الصـریح الـذی یهـتمّ بالأوصـاف الـحسّـــیـة للمـرأة، والغـزل العفیـف الـذی یهـتمّ بـذکر الصـفات ا لأخلاقـیـة للمرأة، والغزل الصناعی الذی کان بهدف التمهید للدخول فی موضـوع القصید ة.

فالفخر والرثاء والغزل کلّها مدح أو قسـم منـه، إذ لـیس الغـزل إلاّ ذکـر لمحاسـن المـرأة و الـحبـیـبـــة أو مـدحهما، ولـیس الفخـر إلاّ ذکـر لمحاسـن الـنفس أو الـقـبـیـلـة أو مدحهما، ولیس الرثاء إلاّ ذکر محاسـن المیّـت أو مدحـه. ومـا یمیّـز بعضها من بعض هو الممدوح، فعندما یکـون الممـدوح هـو الشـاعر نفسـه أو قبیلتـه، یسمّی هذا القسم من المدح فخراً؛ وعندما یکون الممـدوح حـبـیـبـة الشـاعر یسـمّی غزلاً؛ ولو کان الممدوح میّتاً یسمّی رثاءاً. وحتی الوصف، فإنّه مدح لما یراه الشاعر بعینه أو بقلبه من ظواهر ومظاهر أعجبته. ویبقی الهجاء الذی هو ضدّ المـدح ومنـاقض لـه، فهـو تعـداد لمثالب المهجوّ الموجودة فیه حقـیـقـة أو ادّعاءاً. لکنّنا لو جاز لنا تقسیم المدح إلـی قسـمین رئسیین؛ مدح إیجابیّ ومدح سلبیّ لکان الهجاء مدحاً سلبیّاً. فی الختام، یمکننا القـول إنّ الشـعر الجاهلی کلّه مدح فی حقیقته.

کلمات مفاتیح: الشعر الجاهلی، المدح، الفخر، الرثاء، الغزل، المجتمع القبلی.

المقدّمة :

الشعر الجاهلی، کما هو معلوم لکلّ دارس له، واسع الامتداد بسعة الحیاة فی ذلک العصر، متعدّد الأغراض بتعدّد مناحیها لذلک استحقّ أن یکون دیوان العرب وسجلّهم الذی ضمّ بین دفّتیه مآثرهم ومفاخرهم، ومآخذهم ومثالبهم، وحسنهم وقبحهم، وأفکارهم وسجایاهم. وقد کان الشعر الجاهلی غنائیّاً وجدانیّاً یری الفرد محور المجتمع، ویقدّس القوّة بکلّ أشکالها، ویتأثّر بمظاهر الجمال. وکان المدح فی ذلک المجتمع الضیّق یحتلّ مساحة واسعة من أشعار الجاهلیّین لأنّه المعبّر عن إحساسهم بالجمال؛ ماديّاً کان أو معنویّاً؛ ذاتیّاً أو غیر ذاتیّ، ونظرتهم إلی الحیاة.

إنّ بین المدح وبین سائر الأغراض الشعریة علاقات ووشائج. فالمدح، بین هذه الأغراض، أصل وبقیة الفنون الأخری، فی الواقع، فرع له ودّ اخلة فیه. ونحن هنا، لکی نبیّن هذه العلاقات بشکل أوضح، لابدّ أن نتناول تلک الأغراض والفنون بنوع من التفصیل، موضّحین معانیها بشکل أخصّ.

الفخر:

الفخر باب کبیر فی الشعر الجاهلی. فقد أکثر الشعراء من الفخر بأحسابهم وأنسابهم وأیّامهم وأبطالهم ومآثرهم. (انظر: الخفاجی، ص۳۱۳ و البستانی (بطرس)، ص۵۰- ۵۱) فهو فنّ شعری «ینطوی علی زهو الشاعر واعتزازه بنفسه وقومه، وهو ولید الأثرة والإعجاب بالذات» (طلیمات، ۱۹۹۲م، ص۱۳۵) وتربطه بالمدح صلات قویّة. فإنّ الفضائل التی یفاخر بها الشاعر الجاهلی، وینافس بها غیره من الشعراء والقبائل، هی التی یمدح بها السادات والملوک شاکراً أو متکسّباً، معتذراً أو مستعطفاً، لأنّها خیر ما یری من حمید المزایا ومکارم الأخلاق، فی بدوه وفی حضره، فأضافها إلی ممدوحه مبالغاً فی التحدّث عنها مبالغة الشاعر الفارس فی المباهاة بها، وإن تکن الحمیّة عنده أخفّ منها عند الآخر، لأنّ النفس التی تُدفع إلی المدح والثناء، غیر النفس التی تندفع حماسة أو فخراً. إذن، فالفخر هو مدح للنفس أو القبیلة أو القوم أو العنصر.

وربّما کان لطبیعة المجتمع القبلیّ أثرها القویّ، فی نزوع الشاعر الجاهلی، إلی الفخر، ذلک لأنّ الحیاة القبلیّة فی العصر الجاهلی قامت علی مواجهة المخاطر، والمزاحمة علی الماء والکلأ، والشجاعة فی القتال، وما یتّصل من ذلک کلّه بسبب: کالتغنیّ بالبطولات وشنّ الغارات، وتمجید الانتصارات، وکثرة العدد والعدّة، ومنازلة

الأقران، ونجدة الصریخ، والحفاظ علی الشرف والجار، وهذه الأمور جمیعاً أذکت قرائح الشعراء، ووفّرت لهم أسباب التفاخر والتباهی، منفردین ومجتمعین، فانطلقت ألسنتهم بأشعار زاخرة بالعاطفة القویّة، والانفعال العمیق، تبرز فیها الحقائق التاریخیّة مجلبَبَةً بجلباب الخیال والمغالاة.

أقسام الفخر:

یمکن تقسیم الفخر إلی قسمین: فخر فردیّ، وفخر قَبَلیّ. أمّا الفخر الفردیّ فمبعثه إعجاب الشاعر بنفسه، وادّعاؤه تفوّقه علی من حوله، وقدرته علی تهدید الناس بسلاح لا یملکون مثله، یرفع به ویضع، ویعد ویتوعّد. (انظر: الرافعی، ج۳، ص۷۹) وأمّا الفخر القبلیّ فهو فخر بالعائلة والأهل والجماعة والعصبة التی یتقوّی بها الشاعر.

وأکثر ما یکون الفخر ذاتیّاً ینبعث من نفوس تهوی العزّة والمجد، وتحرص علی بناء المکارم، والتّباهی بمآثرها الفردیة، ویبدو هذا الفخر الذاتیّ لدی طائفة من الشعراء الفرسان والأجواد، کعنترة، وحاتم الطائی، وعمرو بن الإطنابة [۱]، والشعراء الصعالیک کالشنفری، وتأبّط شراً، وهنا یحلو للشاعر أن یتحدّث عن نفسه وخصاله، وعراقة أصله، وطیب منبته، وما یتحلّی به من کرم ومروءة وحمایة للجار، وغیر ذلک من الفضائل الخلقیة. وفی معلقات طرفة بن العبد، ولبید بن ربیعة، وعنترة بن شدّاد، وعمرو بن کلثوم صور کثیرة من هذا الفخر الفردیّ، تتلاقی علی صعید واحد، وقد وشّحها أولئک الشعراء بذکر القصف واللّهو، والفخر بشرب الخمرة فی معرض الحدیث عن الکرم والإکرام.[۲]

أهمّ المعانی والصور فی الفخر الفردیّ:

معانی الفخر بالنفس متعددة ومتنوعة. فالجاهلیّ افتخر بالشعر والفصاحة، والشجاعة والبطولة، والإقدام والاندفاع، وطیب المحتد والشرف، والسؤدد، والکرم، والحلم، وحصافة الرأی، والخمر، والصبر علی العسر، وحمایة الجار، والوفاء، والعفّة، وحمایة العِرض، وغیر ذلک ممّا لا یمکن حصره. (انظر: شامی، ص٦) ونکتفی هنا بذکر بعض الأمثلة من هذه المعانی فی أشعار الجاهلیّین.

فاخر النابغة الذبیانی یزید بن عمرو بن الصعق، وکلاهما شاعر، فرماه بالضّلال والزّیغ عن الحقّ، وبالعجز عن الفخر، وهدّده بقوافیه القادرة علی صعقه وسحقه. قال:

لعَمــــرُکَ مـــا خَشـــیتُ علـــی یَزیـــدٍ مِـــنَ الفَخـــرِ المُضَـــلِّلِ مـــا أتـــانی[۳]
فحَســـبُکَ أن تهُـــاضَ بمُحکَمـــاتٍ یُمَـــرّ بهـــا الـــرّوِیُّ علـــی لِســـانی[٤]
یَصُـــدُّ الشّـــاعرُ الثُّـــنیانُ عَنّـــی صُـــدودَ البَکـــرِ عـــن قَـــرَمٍ هِجـــانِ[٥]
(عبد السّتّار، ص۱۲۱)

وقال زهیر بن أبی سلمی مفتخراً بجرأته وشجاعته (بشکل غیر مباشر):

ومَـــن لـــم یَـــذُدْ عَـــن حَوضِـــهِ بسِـــلاحِهِ یُهَـــدَّمْ ومَـــن لا یَظلِـــمِ النّـــاسَ یُظلَـــمِ[٦]
(طمّاس، (زهیر)، ص۷۰)

وقال الأعشی یفتخر بحرصه علی جمع المال مهما بعُد مصدره وعسُر:

وَقـــد طُفـــتُ لِلمَـــال آفَـــاقَهُ عُمـــانَ فَحِمـــصَ فَأُوریشَـــلِمْ[۷]
أتَیـــتُ النَّجاشِـــیَّ فـــی أرضِـــهِ وَأرضَ النَّبـــیطِ وأرضَ العَجَـــمْ[۸]
فَنَجـــرانَ فَالسَّـــروَ مِـــن حِمیـــرٍ فَـــأیَّ مَـــرامٍ لَـــهُ لَـــم أرُمْ[۹]
(الحتّی، ص۳۱۸)

وقال حاتم الطائی یفتخر بالکرم والندی:

إذا مـــا بخیـــلُ النّـــاسِ هَـــرّتْ کِلابُـــهُ وشقَّ علی الضّـیفِ الغریـبِ عَقورُهـا[۱۰]
فـــإنّی جَبـــانُ الکلـــبِ بَیتـــی مُوَطَّـــأٌ أجـودُ إذا مـا النّفـسُ شَـحَّ ضَـمیرُها[۱۱]
وَإنَّ کلابـــی قـــد أُهِـــرَّتْ وعُـــوّدَتْ قلیلٌ علـی مَـن یَعتریـها هَریـرُها[۱۲]
(رشاد، صص۳۱- ۳۰)

ویقول الشنفری فی الفخر بنفسه وشجاعته:

وَلَســـتُ بمِهیـــافٍ یُعَشِّـــی سوامَـــهُ مجدَّعَـــةً سُقبانُـــهَا، وهـــی بُهَّـــلُ[۱۳]
ولا جُبّـــأٍ أکهَـــی، مـــربٍّ بعرسِـــه یطـــالِعُها فـی شأنـــهِ کیـفَ یفعـلُ[۱٤]
وَلَســـتُ بمِحیـــارِ الظـــلامِ، إذا انتَحَـــتْ هُدَی الهَوجَلِ العِسِّیفِ یَهمَاءُ هَوجَـلُ[۱٥]
(شکری فرحات، ص٤۰- ٤۱)

الفخر القبلیّ وأهمّ معانیه وصوره:

کان ارتباط الفرد بالقبیلة مظهراً قویّاً من مظاهر الحیاة البدویّة فی العصر الجاهلی، وهو ما فرضته شدّة الصراع بین القبائل المختلفة، وضراوة التزاحم علی الموارد والمراتع، وحاجة القبائل فی هذا الصراع إلی تضامن أفرادها الشدید وإلی استخدام الأسلحة المادیّة والمعنویّة المختلفة. ولمّا کان الشعر الحماسیّ أهمّ الأسلحة

المعنوية فى سُوح المعارك، ندب الشعراء فنّهم للقيام بهذا الواجب القبلىّ، فبعثوا بأنفاسهم الملتهبة روح الحميّة، وسعّروا بصيحاتهم الغاضبة نار العصبية، ورغّبوا أبناء القبيلة فى الاندفاع إلى ميادين القتال مظلومين أو ظالمين، معتدين أو منتقمين. وافتخروا بشِيَمٍ وقِيَمٍ تزيدهم تلاحماً، ومن هذه القيم: النجدة، والعصبية، والإغارة وردّ الإغارة، والقتال قبل السؤال، والأخذ بالثأر، والسطوة على الملوك، والأنساب والأمجاد، والسيادة وكثرة العدد، ومكارم الأخلاق، والأغراض الأخرى. (انظر: طليمات، ص١٤٧ وما بعدها)

ويفخر عمرو بن كلثوم بقومه فى خطابه لعمرو بن هند:

أبا هِندٍ فَلاَ تَعجَل عَلَينَا ... وأنظِرنَا نُخَبِّرك اليقِينَا[١٦]

بأنّا نُورِدُ الرَايات بيضاً ... ونُصدِرُهُنَّ حُمراً قَد رَوِينا[١٧]

(الزوزنى، شرح المعلقات، ص١٧٧- ١٧٨)

ويقول فى موضع آخر من معلّقته:

متى ننقُلْ إلى قومٍ رَحانا ... يكونوا فى اللقاءِ لها طحينا...

نُطاعنُ ما تراخى النّاسُ عنّا ... ونضربُ بالسيوفِ إذا غُشينا[١٨]

(الزوزنىّ، معلقات، ص١٢٤)

ويفتخر الأعشى بشجاعة قبيلته ويقول:

سَائِلْ بَنى أسَدٍ عَنّا فَقَد عَلِمُوا ... أنْ سَوفَ يَأتِيكَ مِن أنبَائِنَا شَكَلُ[١٩]

أنّا نُقَاتِلُهُم حتّى نُقَتِّلَهُم ... عِندَ اللّقاءِ وَهُم جَارُوا وَهُم جَهلُوا[٢٠]

(الحتّى، ص٢٨٦)

وممّا ساعد على ازدهار الفخر فى العصر الجاهلى «أيّام العرب، وما كان يجرى فيها من ملاحم يتطاحن فيها الفرسان، وينبرى فيها الشعراء للشعراء فى مفاخرات ومنافرات لا تقلّ احتداماً واضطراماً عن المعارك التى تسبقها وتلحقها». (طليمات، ١٩٩٢م، ص١٣٦)

وهذا الفخر يكون، بطبيعته، قبليّاً تسيطر عليه روح حماسيّة جارفة، وهذا شأنه دائماً فى مواطن الكرّ والفرّ، والأخذ بالثّأر وتضييق الخناق على الأعداء، و استطابة الموت عند الحرب، إذ ينطوى شعر الفخر على دفقات قويّة من الحماسة، ويتكون من ذلك مزيج متلازم. ومن خير ما يمثّل هذا الفخر القَبَلىّ الحماسىّ معلقة عمرو بن كلثوم التغلبى، التى سجّل فيها انتصارات قبيلته، ومَنَعَتها، وما يتحلّى به أفرادها من شجاعة وإقدام، وسطوة

و هیبة و أنفة وإباء.

وهذه الحماسة المزهوّة لا تحول دون إنصاف الشاعر لأعدائه، والإقرار بقوّتهم وشجاعتهم، وعُرفت فی الشعر الجاهلی قصائد من هذا القبیل سمّیت «المنصفات»، ومن أصحابها: العبّاس بن مرداس، وعوف بن الأحوص، وخداش بن زهیر. (انظر: شامی، (د.ت)، ص۱۲) وقد یرافق ذلک الإنصاف إقرار بالفرار کما فعل عمرو بن معدی کرب حین لقی فرسان عبس وفیهم سیّدهم زهیر وأولاده شاس ومالک وقیس، وکلّهم مشهور بالشجاعة والبطش، فخافهم وهرب. قال:

لقیتُ أبا شاسٍ وشاساً ومالکاً ... وقیساً، فجاشتْ من لقائِهمُ نفسی[۲۱]

لقونا، فضمّوا جانَبَینا بصادق ... من الطعنِ مثلِ النارِ فی الحَطَبِ الیَبْسِ

ولمّا دخلنا تحتَ فیءِ رماحِهِمْ ... خبطْتُ بکَفّی أطلبُ الأرضَ باللّمَسِ[۲۲]

ولیسَ یُعابُ المرءُ من حَیْنِ یومِهِ ... إذا عُرِفتْ منهُ الشجاعةُ بالأمسِ[۲۳]

(البستانی(فؤاد)، ج۱، ص۳۱۳)

یقول ابن رشیق: «إنّ الفخر هو المدح نفسه، ولکن الشاعر یخصّ نفسه وقومه». (الرافعی، ج۳، ص۷۸) ونحن نقول إنّ الفخر یضارع المدح لجهة کونه قائماً علی الإشادة بفضائل النفس، وتعداد مآثرها ومناقبها، مع الأخذ بعین الاعتبار أنّ المدح یتوجّه به الشاعر إلی الشخص الممدوح الخارج عنه، فیما ینصبّ الفخر علی امتداح الشاعر لنفسه، وتعظیمه صفاتها أو امتداح الشاعر لقبیلته.

الرثاء:

الرثاء بکاء المیّت ومدحه. جاء فی لسان العرب: «رثی فلان فلاناً یرثیه رثیاً ومرثیةً إذا بکاه بعد موته. قال: فإنْ مدَحه بعد موته قیل: رثّاه یرثّیه ترثیة.. ورثوت المیّت أیضاً إذا بکیته، وعددت محاسنه. وکذلک إذا نظمت فیه شعراً». (لسان العرب، مادة: رثی) والرثاء یقترن بالموت وهو ذکر محاسن المیّت من قِبَل الشاعر، فیحاول أن یذکر کلّ ما یجده من المحاسن فی المیّت بحیث یؤدی إلی إثارة مشاعر المخاطبین ویُبکیهم فی بعض الأحیان حتی یشیر إلی مکانة المیّت الراقیة فی حیاته وفی المجتمع، وکیفیة موته. «کذلک کان هناک فریق من الشعراء رثوا أحبّاءهم بحسرة ولکن باستسلام للقدر وبرضوخ لمشیّة الله ونظام الحیاة. وإذا کان المدح تکسّبیاً فی أکثره، فإنّ الرثاء کان معظمه صادقاً ینجرف فیه الشاعر وراء

قلبه فیصف ألمه وإحساسه بالعذاب لفقده من أحبّه». (محمد، الرثاء، صص ٦ـ٥) إذن، فلیس الرثـاء إلاّ جزء من المدح أو بالأحری هو المدح نفسه، غیر أنّه حُدّد بالمیّت. قال قـد امـة: «إنّه لیس بین المـرثـیـة و الـمـدحـة فصل إلاّ أن یُذکر فی اللفظ ما یدلّ علی أنّه لهالک». (الرافعی، ص٨١)

«وأشیَع المعانی فی الرثاء أن یصوّر الشاعر الـفـجـیـعـة، وأن یحلّل تأثیرها فی نفسه، وفـی نفوس الناس الذین تربطهم بالفقیـد ر ابـطـة مـن صـد اقـة أو نسـب. وأن یعـدد مناقبـه کـا لـشجـا عـة والکرم، والنجدة، والشرف، وأن یدعو له بالسقیا بعد الموت، کما کان یدعو له بها فی الحیا ة ... فإن کان الفقید قتیلاً مضی الشاعر یهدّد قَتَلَتَه، ویحرّض علـی إدراک الثـأر، وإن کان قد لقی الموت حتف أنفه تجلّد، وتصبّر، والتمس السلوان ومضـی یقـیس مصـابه بمصـاب الآخرین». (طلیمات، ص١٩٥)

أنواع الرثاء:

یمکن تقسیم الرثاء إلی نوعین: رثاء فردی یختصّ برثاء المتّصلین بالشـاعر بـصلـة نسـب أو سبب، ورثاء قَبَلی یختصّ برثاء أفرد الـقـبـیـلـة وشخصیّاتها، أو هو رثاء خاصّ ورثاء عامّ.

الرثاء الفردی:

یُعدّ الرثاء الفردی أصدق نوعَیِ الرثاء، وأعلقهما بالنفس، وأقربهما إلی الفطـر ة والطبـع. وفـی هذا النوع من الرثاء تبزّ النساء الرجال لا بجودة النظم وعمـق المعنـی، بـل بصـدق الإحسـاس. یقول ابن رشیق: «والنساء أشجی الناس قلوباً عند المصیبة، وأشدّهم جزعاً علی الهالک لما رکّب الله عزّ وجلّ فی طبعهنّ من الخوَر وضعف الـعـزیـمـة». (القیروانی، ج٥، ص١٥٣)

ومن أهم صور مراثی النساء، رثاء الأمّ لولدها، ونـدبـة الأخت لأخیها، وبکـاء البنـت علـی أبیها. وخیر مثال لهذا النوع من الرثاء فی الـجـا هـلـیـة، مراثـی الخنسـاء فـی أخویهـا صـخر ومـعـا ویـة. قالت فی رثاء صخر:

وَإنَّ صَـــخراً لمَقـــدامٌ، إذا رَکِبُـــوا وَإن صَـــخراً، إذا جَـــاعُوا لَعَقَّـــارُ[٢٤]
وَإن صَخـــراً لَتَـــأتَمُّ الهُـــدا ةُ بِـــهِ کَأنّـــهُ عَلَـــمٌ فـــی رَأسِـــهِ نـــارُ[٢٥]

(طمّاس، دیوان الخنساء، ص٤٦)

أمّا رثاء الرجال للرجال فقد کان زاهداً فی البکاء، حریصاً علی الإشاد ة بالمـآثر، صـادقاً فـی مزجه الحزن بالفخر لأنّ الشاعر الجاهلی کان واقعیاً فی الرثاء کما کان واقعیاً فی المدح، فهو لـم

یکن یختلق فضائل لم تؤثر عن الفقید، ولم یکن یخلع علی الصعلوک جلال الملوک، بل کان یصف المیّت بما فیه. (انظر: طلیمات، ص۱۹۹)

فحینما رثی امرؤ القیس أباه، لم یکن لیبکیه أو یستبکی الناس علیه، لأنّ مکانته تجلّه عن الدموع، بل فاخر به وبمکانته، وراح یباهی بموضع أبیه من الملک، ویصوّر القبائل العربیّة من ربیعة وتمیم وأتباعهما خدماً له وموالی تسعی إلی مرضاته، والتلقّط من فُتاته:

أرقتُ لبرقٍ بلیلٍ أهلْ ... یضیءُ سناهُ بأعلی الجبلْ
فأینَ ربیعةُ عنْ ربّها ... وأینَ تمیمٌ وأینَ الخَولْ
ألا یحضرونَ لدی بابِهِ ... کما یحضرونَ إذا ما أکلْ

(البستانی(فؤاد)، ج ۱، ص۵۳)

ورثی تأبّط شرّاً الشنفری ونوّه بشجاعته وسرعته وصبره واحتماله الشدائد، فقال:

قضی نحبه مستکثراً من جمیلِهِ ... مُقِلّاً من الفحشاءِ والعِرضُ وافرُ
یفرّجُ عنهُ غَمّةَ الرَّوعِ عزمُهُ ... وصفراءُ مِرنانٌ وأبیضُ باترُ
ومرقبةٌ شماءُ أقعیتَ فوقَها ... لیغنمَ غازٍ أو لیدرک ثائرُ
إذ راعَ روعُ الموتِ راعَ، وإن حمی ... حمَیَ معهُ حرٌّ کریمٌ مصابرُ

(شکری فرحات، ص۷٤)

علی أنّ الرثاء الجاهلی لم یبرأ من الغلو والشطط، لکنّ هذه المبالغات لا تشغل من القصیدة الجاهلیة غیر بیت أو بیتین، یخرج فیهما الشاعر عن المألوف. ومن أوضح أمثلته رثاء النابغة لحصن بن حذیفة بن بدر الذی بالغ وغلا فی تصویر المصاب:

یقولون حِصنٌ ثمّ تأبی نُفُوسُهُم ... وکیفَ بحِصنٍ والجبالُ جُموحُ[۲۶]
ولم تلفَظِ الموتَی القبورُ، ولم تَزلْ ... نجومُ السماءِ والأَدیمُ صَحیحُ[۲۷]
فعمّا قلیلٍ ثمّ جاشَ نَعیُّهُ ... فظلّ نَدیَّ الحیِّ وهو یُنُوحُ[۲۸]

(عبد الستّار، ص۳۱)

الرثاء القَبَلیّ :

إنّ ارتباط الشاعر بقبیلته حمّله تبعات کثیرة، فهو فی السلم لسانها الناطق بالمفاخر، وفی الحروب شعلتها التی تُضرم الغضب فی النفوس، وبعد الحرب نادبها الباکی علی القتلی. (انظر: طلیمات، ص۲۰۲)

ولمّا کانت حیاة العرب فی الجاهلیة مقترنةً بالحروب، فقد کثر الرثاء فی أشعارهم، واتّخذ بعضه طابع الرثاء القبَلیّ العام، وشاع فی هذا الرثاء البکاء علی أبطال القبیلة، والقبول بالقدر المقدور. قال عبید بن الأبرص یرثی الذاهبین من قومه:

لمنْ طللٌ لم تعفُ منهُ المذانبُ فجنبا حِبرٍّ قد تعفّا فواهبُ[۲۹]
دیارُ بنی سعدِ بنِ ثعلبةَ الأُلی أذاعَ بهم دهرٌ علی الناسِ رائبُ[۳۰]
فأذهَبَهم ما أذهبَ الناسَ قبلَهُم ضِراسُ الحروبِ والمنایا العواقبُ[۳۱]

(ناصیف، صص۲۸-۲۷)

وأشهر شعراء الرثاء فی العصر الجاهلی، المهلهل والخنساء والأعشی والنابغة الذبیانی. (السابق، ص۵) ونشیر هنا إلی بعض نماذجه من شعر بعض هؤلاء الشعراء.

أنشدت الخنساء قصیدة ترثی بها أخاها صخراً. قالت:

یا عَینِ ما لَکِ لا تَبکینَ تَسکابا؟ إذ رابَ دَهرٌ، وکانَ الدّهرُ ریّابا[۳۲]
اِبکی أَخاکِ لأیتامٍ وأرمَلَةٍ، وَابکی أخاکِ، إذا جاوَرتِ أجنابا[۳۳]
المجَدُ حُلّتُهُ، والجُودُ عِلّتُهُ، والصّدقُ حَوزَتُهُ إن قِرنُهُ هابا[۳٤]

(طمّاس، صص۱٤ـ۱۳)

وقال النابغة فی رثاء النعمان بن الحارث:

قُل للهمام، وخیرُ القولِ أصدَقُهُ والدّهرُ یومضُ بعدَ الحال بالحال[۳۵]
ماذا رُزئنا به من حیّةٍ ذکرٍ نَضنَاضةٍ بالرزایا صِلٍّ أَصلالِ[۳٦]

(عبد الستّار، ص۸۵)

وقال المهلهل فی رثاء أخیه کلیباً:

کلیبُ لا خیرَ فی الدُّنیا وَمَنْ فیها إنْ أنتَ خَلَّیتَها فی مَنْ یُخَلِّیهَا
کلیبُ أیُّ فَتیً عِزٍّ وَمکرُمَةٍ تحَتَ السّفاسِفِ، إذ یَعلُوکَ سَافِیهَا[۳۷]
نَعیَ النُعاةُ کُلَیباً لی فقُلتُ لهَم مالَت بِنا الأرضُ أو زالَت رَواسِیهَا[۳۸]

(حرب ، ص۸۹)

الغزل:

«الغزل، حدیث الفتیان والفتیات.. واللّهو مع النساء ومغازلتهنّ..، محادثتهنّ ومراودتهنّ». (طلیمات، ۱۹۹۲م، ص۱۰۸) احتلّ هذا اللّون مکاناً بارزاً فی الشعر الجاهلی حیث بدأت به مطالع القصائد وبخاصّة المعلّقات، ویرجع اهتمامهم بالغزل إلی مکانة المرأة، وخلوّ حیاة

العربی من وسائل المتعة، وطبیعة الحیاة البدویّة القائمة علی التلاقی والافتراق، مما یثیر بواعث الشوق إلی المرأة والتغنّی بأوصافها، فهو یمدحها ویُثنی علیها، ولکنّه مدح یختلف عن المدح التقلیدی لأنّ الممدوح فیه هو المرأة دون الرجل.

أقسام الغزل:

کان الغزل فی العصر الجاهلی علی ثلاثة أنماط:

الغزل الصریح الذی یهتمّ بالأوصاف الحسّیة للمرأة، والغزل العفیف الذی یهتمّ بذکر الصفات الأخلاقیة للمرأة، والغزل الصناعی الذی کان بهدف التمهید للدخول فی موضوع القصیدة. (انظر: المصدر السابق، ص۱۱۰)

وقد احتلّ الغزل حیّزاً کبیراً من الشعر العربیّ والجاهلیّ لارتباطه الوثیق بحیاة الشاعر الذی یهزّه الحبّ ویفیض قلبه بالعواطف. وقد کانت الأطلال- علی ما فیها من وحشة وکآبة- المدخل الذی یفضی منه الشاعر الجاهلی إلی الغزل لارتباطها بأحبّته. ولمّا کان الطلل باب الغزل فقد کان الشاعر یحیّیه، وهو فی الحقیقة لا یحیّی إلاّ حبیبته، ویدعو له بالسلامة من الآفات. (محمد، ص۸) ألا تری امرأ القیس کیف حیّا دیار سلمی التی محت رسومها الأمطار الغزیرة:

ألا عِمْ صَبَاحاً أیّها الطَّلَلُ البَالی وَهلْ یَعِمَنْ مَنْ کانَ فی العُصُرِ الخالی[۳۹]

دِیارٌ لسَلمَی عَافِیاتٌ بذِی خال أَلحَّ عَلَیها کُلُّ أسحَمَ هَطّالِ[۴۰]

(المصطاوی، ص۱۳۵)

ومرّ عنترة بدار عبلة فی الجواء فحیّاها وکلّمها، ودعا لها بالسلامة، وما المقصود بالتحیات والدعوات إلاّ عبلة:

یا دارَ عَبلَةَ بِالجِواءِ تَکَلّمی وَعِمی صَباحاً دارَ عَبلَةَ وَاسلِمی[۴۲]

(الزوزنی، شرح المعلقات، ص۱۹۷)

ورأی زهیر (حومانة الدرّاج) فسألها عن أمّ أوفی، إذ لا فضل لأرض علی أرض إلاّ فی شیء واحد، هو ارتباطها بالمحبوبة:

أمِن أُمّ أوفَی دِمنَةٌ لَم تَکَلّمِ بحَومانَةِ الدَّرّاجِ فَالمُتَثَلَّمِ[۴۲]

(طمّاس، (زهیر)، ص٦٤)

وقال زهیر بن أبی سلمی فی موضع آخر:

صَحا القلبُ عن سلمی وقد کاد لا یسلو وَأقفَرَ من سَلمی التّعانیقُ فَالثّقلُ[۴۳]

(المصدر نفسه، ص٤٧)

کما توقفوا عند وصف محاسن الجسد ولقاء الشاعر بصاحبته، إذ إنّ المرأة العربیة ذات جمال تامّ، فشبّهوا أعضاء جسمها بأشیاء کثیرة، فهی «بیضاء البشرة أو صفراء، وبادن القدّ، وقامتها نیّاف، طویلة مُشْرَئِبّة، وهی مصقولة الترائب، جماء التراقی، جیداء، ممتلئة الذراعین، ریّانة الساقین والقدمین. لها خصر دقیق، وکشح هضیم، أملس ذو عکن وغیر مفاضة. ولها شعر أسود وارد أثیث، ووجه أغرّ نقی اللون، غیر مخدّد، وعینان کحیلان فیهما فتور وحوَر، وخدّ أسیل أبلج، وأنف أشمّ. وهی فی فمها حوّاء لمیاء، لثاتها حمش، وأسنانها مؤشَّرة بیض مفلجة رتل. أمّا کفّها فمخضبة رخصة غیر موشومة. وأناملها سباط خضیب، وهی علی العموم برهرهة بهکنة رؤدة، خرعوب، رخصة هرکولة. وهی نؤوم الضحی، راقدة الصیف منعمة، من سروات النساء. وحدیثها لذیذ، وصوتها خفیض، لا تفحش فیه، ولا تنشر الأسرار فی الحیّ. وهی غیر قطوب.»[٤٤] (طلیمات، صص ١١٨ـ١١٩)

وصف المرقّش الأصغر وجه صاحبته الأبیض وشعرها الأسود، فاکتفی بتشبیه ضفائرها بالحبال:

ألا حبَّذا وَجهٌ ترینا بیاضهُ ومنسدلاتٍ کالمثانی فَوَاحما[٤٥]

(الضبّی، ص٢٤٥)

وقال طرفة بن العبد فی هذا المعنی:

وفی الحیِّ أحوی یَنفُضُ المَردَ، شادنٌ مُظاهِرُ سِمطَی لُؤلُؤٍ وَزَبَرجَدِ[٤٦]

وَوَجهٍ کأنّ الشّمسَ ألقَت رِداءَها علیهِ، نَقِیُّ اللّونِ، لَم یَتَخَدّدِ[٤٧]

(البستانی(فؤاد)، صص٥٨- ٥٧)

وقال امرؤ القیس فی هذا المعنی:

غَدائرُه مُستَشزِرَاتٌ إلی العُلا تَضِلّ العِقاصُ فی مُثَنًّی وَمُرسَلِ[٤٨]

(المصطاوی، ص٤٣)

وقال الأعشی فی وصف هریرة:

وَدِّع هُرَیرَةَ إنَّ الرَّکبَ مُرتحَلُ وَهل تُطیقُ وداعاً أیُّها الرَّجُلُ[٤٩]

غَرَّاءُ فَرعَاءُ مَصقُولٌ عَوارِضُهَا تمَشِی الهُوَینَی کما یمَشِی الوَجِی الوَحِلُ[٥٠]

إذَا تَقُوم یَضُوعُ المِسکُ أصوِرَةً وَالزَّنبَقُ الوَرِدُ مِن أردانِها شمَلُ[٥١]

(الحتّی، ص٢٧٨)

أمّا بالنسبة للغزل الصريح الماجن، فلم تكن نفوس العرب ـ على جاهليتها ـ تألف الغزل المكشوف، بل كانت تؤثر التلميح على التصريح، والإشارة الموحية على العبارة الفاضحة، ولهذا قلّ فی غزلهم وصف السوءات، والحديث عمّا يجری بين الرجل والمرأة من مراودة تفضی إلی الوصال؛ (انظر: الخفاجی، ص٣٣٥) فأبياتها قليلة فی دواوين بعض الشعراء المجانّ مثل الأعشی الذی فتنته امرأة بشبابها الريّان، متوفّرة علی العناية بزينتها، غارقة فی عطرها، فلبث يترصّد من الرقيب غفلة، حتی إذا سنحت له فی جوف الليل اقتحم عليها مخدعها:

وَمِثلِكِ مُعجَبَةٍ بالشّبَا ب صَاكَ العَبيرُ بأجسادِهَا[٥٢]
تَسَدّيتُهَا عَادَنی ظُلمَةٌ وَ غَفلَةُ عَينٍ وَإيقادُهَا[٥٣]
فَبِتُّ الخَليفَةَ مِن زَوجِهَا وَسَيِّدَ «تَيَّا» وَمُستَادَهَا[٥٤]

(الحتّی، ص١٢٢)

ومثل امرئ القيس الفتی المزهوّ بشبابه الغارق فی شهواته الذی طرده أبوه، حيث يقول فی معلقته فی وصف اقتحامه هودج عنيزة:

وَبَيضَةِ خِدرٍ لا يُرامُ خِباؤها تمَتَّعتُ مِن لهوٍ بهَا غَيرَ مُعجَلِ[٥٥]
تجَاوَزتُ أحرَاساً إلَيهَا وَمَعشَراً علیّ حِرَاصاً لَو يُسِرُّونَ مَقتَلِی[٥٦]

(الزوزنی، شرح المعلقات، ص٢٤ و انظر: المصطاوی، ص٣٨)

وتحدّث الجاهليون أيضاً عن آرائهم فی الحبّ، وكان بعضهم يتغزّل بالفتاة العربية النسب، والبعض تغزّل بالقيان كما فعل طرفة فی معلقته. (محمد، الغزل، ص٨)

وفی الغزل العفيف الذی يهتمّ بذكر الصفات الأخلاقية للمرأة، قال علقمة الفحل من قصيدة فی مدح الحرث الغسّانی:

منعّمةٌ لا يُستطاعُ كلامُها علی بابها من أنْ تُزارَ رقيبُ[٥٧]
إذا غابَ عنها البعلُ لم تُفشِ سِرّهُ وتُرضی إيابَ البعلِ حينَ يؤوبُ[٥٨]

(البستانی(فؤاد)، ص١٧١)

وهكذا رأينا أنّ الشاعر، فی الغزل، يقوم بذكر محاسن حبيبته وبذكر الأطلال الباقية من بيتها، علی نحو يُريها للمخاطب بأحسن ما يكون. فيستعين فی هذا السبيل بكلّ ما يستطيع ليُرِی الحبيبةَ فی أفضل حالة ممكنة، فيقوم بمدحها عبر ذكر محاسنها ومحاسن قومها وذكر النقاط الإيجابيّة التی يجدها عندها. إذن، فالغزل ليس إلاّ قسماً

من المدح الذی حُدِّد بالحبیبة، أو بالأحری إنّ الغزل هو المدح نفسه.[٥٩]

حصاد البحث:

١. یعتبر المدح أبرز الفنون الشعریّة عند العرب علی الإطلاق، بل هو فی الطلیعة، ویشغل حیزاً کبیراً من مساحة الأدب العربی، رافق الشعر منذ نشأته الأولی کما یرافق الوتر العود. ونجده یلعب دوراً مهمّاً من الجاهلیة إلی هذا العصر، حیث کان موضع إهتمام الشعراء فی کلّ العصور، ولا شک أنّ هذه الظاهرة ناشئة عن جذور قدیمة لها. وإذا أمعنّا النظر فی تاریخ المجتمعات العربیة، لوجدنا أنّ مردّ هذا الأمر إلی طبیعة العرب ومقتضیات حیاتهم الخاصة بهم. وینبغی لنا أن نرجع إلی بدایات حیاة العرب وممیزاتها لنتمکّن من تعلیل وجود المدح عندهم وکثرته.

٢. علی الرغم من التطوّرات التی طرأت علی العملیّة الشعریّة وعلی الرغم من التبدّل الذی أصاب الشعر من حیث المفاهیم والمقاییس، فإنّ المدح لم یغب فی یوم من الأیّام عن مسرح الشّعر، بل ظلّ هو الأصل وسائر الفنون الشعریّة هی الفرع. یتناوله الشعراء ویصرفون إلیه کلّ عنایة واهتمام کأنّه استقرّ فی أذهانهم أنّ الشاعر خُلق لیکون مدّاحاً، فإذا نظم شعراً فی غیر المدح کان کالرّامی الذی یرمی سهاماً طائشة بعیدة عن إطار هدفها. من هنا کان حلم کلّ شاعر أن یسخّر عبقریّته فی هذا الاتّجاه فیجعل شعره باباً للرزق ومفتاحاً للثروة، حتی طُبع الأدب العربی بطابع المدح وبات من الصعب أن نجد شاعراً عربیّاً من العباقرة لم یصطنع المدح، لدرجة أنّ الدواوین امتلأت بهذا اللون وغدت قصائدها تشکّل القسم الغالب فی نتاج الشعراء.[٦٠]

٣. یمکننا القول إنّ الفخر والرثاء والغزل کلّها مدح أو قسم من المدح، فلیس الغزل إلاّ ذکر لمحاسن المرأة و الحبیبة أو مدحها بعبارة أخری، ولیس الفخر إلاّ ذکر لمحاسن النفس أو القبیلة أو مدحهما، بعبارة أخری، ولیس الرثاء إلاّ ذکر محاسن المیّت أو مدحه، بعبارة أخری. وما یمیّز بعضها من بعض هو الممدوح، فعندما یکون الممدوح هو الشاعر نفسه أو قبیلته، یسمّی هذا القسم من المدح فخراً؛ وعندما یکون الممدوح حبیبة الشاعر یسمّی هذا القسم من المدح غزلاً؛ ولو کان الممدوح میّتاً یسمّی هذا القسم من المدح رثاءاً. إذن فلیست هذه الأنواع الثلاثة من الشعر، إلاّ مدحاً فی الحقیقة، غیر أنّها محدودة،

والمدح أعمّ منها حيث يضمّ كلّ هذه الأنواع الثلاثة.

٤. إنّ النصوص الشعرية للفخر والرثاء والغزل كثيرة جداً فی العصر الجاهلی، ولو أضفنا تلک الأغراض إلی المدح لرأينا أنّها تشكّل أغلب النصوص الشعرية فی ذلک العصر. وحتی الوصف، فإنّه، بشكل عام، مدح لما يراه الشاعر بعينه أو بقلبه من ظواهر ومظاهر أعجبته حيناً وتعجّب منها حيناً آخر. ولم نُدرج الوصف ضمن الحديث علی الفخر والرثاء والغزل لأنّ كافّة أشكاله لا يمكن اعتبارها مدحاً للموصوف، وإن كان المدح هو الغالب فيه. ويبقی الهجاء الذی هو ضدّ المدح ومناقض له، فهو تعداد لمثالب المهجوّ الموجودة فيه حقيقة أو ادّعاءاً. لكنّنا لو جاز لنا تقسيم المدح إلی قسمين رئسيين؛ مدح إيجابیّ ومدح سلبیّ لكان الهجاء مدحاً سلبيّاً.

٥. فی الختام، نستطيع القول إنّ الشعر الجاهلی كلّه مدح فی حقيقته. وليس هذا القول هو من باب التدقيق، بل هو من باب التغليب.

الهوامش:

١ـ هو عمرو بن عامر بن زيد مناة الكعبی الخزرجی، شاعر جاهلیّ فارس. كان أشرف الخزرج. اشتهر بنسبته إلی أمّه (الإطنابة) بنت شهاب، من بنی القين. وفی الرواة من يعدّه من ملوک العرب فی الجاهلية. كانت إقامته بالمدينة وكان علی رأس الخزرج فی حرب لها مع الأوس. قال معاوية: لقد وضعتُ رجلی فی الركاب يوم صفين وهممتُ بالفرار فما منعنی إلاّ قول ابن الإطنابة:

أبتْ لی عفّتی وأبی إبائی وأخذی الحمدَ بالثمنِ الربيحِ

(الموسوعة الشعرية، قرص مدمّج)

٢ـ لمعلومات أكثر فی الفخر، راجع: صادق الرافعی، تاريخ آداب العرب، ٣: ٧٨ ومابعدها. وغازی طليمات، العصر الجاهلی، ص١٣٥ ومابعدها. وسراج الدين محمد، الفخر فی الشعر العربی، ص٥ وما بعدها. ويحيی شامی، أروع ما قيل فی الفخر، ص٥ وما بعدها. وحنا الفاخوری، الفخر والحماسة، ص٩ ومابعدها.

٣ـ المضلّل: الذی يضلّل صاحبه، أو الذی يُنسَبُ إليه الضَّلال.

٤ـ الهيض:كَسرٌ بعد جَبرٍ. الرویّ: حرف القافية فی القصيدة.

٥ـ الثنيان: الذی دون البَدِّء، والبَدءُ السيّد فی القوم، أو الفحل الكريم من الإبل. الهجان: الإبل البيض. وقال فی المعجم الوسيط: الثُّنيان: الإمّعة الذی لارأی له. (المعجم الوشيط، مادة: ثنی)

٦ـ يذود: أی يمنع ويردع.

٧ـ عمّان: باليمن. حمص: بالشام. أورشليم: بيت المقدّس.

٨ـ النجاشی: لقب ملک الحبشة. النبيط: قوم من الأعاجم كانو ينزلون بأرض تدعی البطائح بين العراقَين (البصرة و الكوفة).

٩ـ نجران: اسم موضع باليمن. رام الشىء: أراده وطلبه.

١٠ـ شقّ عليه: صعب عليه. العقور: الذى يجرح.

١١ـ جبان الكلب: كناية عن الكرم. موطّأ: مسهل. شحّ: بخل.

١٢ـ أهرت: جرت.

١٣ـ المهياف: الذى يشتدّ عطشه وسط النهار. السّوام: البهائم، وعشّى السّوام: أى رعاها ليلاً. مجدّعة: سيئة الغذاء. السقبان: جمع سقب، ولد الناقة. البهّل: جمع بـا هـلـة، الـنـاقـة لا صرار لها.

١٤ـ الجبّأ: الجبان. أكهى: ضعيف. مربّ: مقيم وملازم. عرسه: زوجته.

١٥ـ محيار: اسم مبالغة من الحيرة . انتحت: قصدت، اعترضـت. الهوجـل: المتسـرّع، الأحمـق. العسّـيف: التائـه. يهمـاء: صحراء. هوجل (الثانية): مـضيّـعـة.

١٦ـ يقول: يا أبا هند لا تعجل علينا وانظرنا نخبرك باليقين من أمرنا وشرفنا، يريد عمروبن هند فكنّاه.

١٧ـ الـر ايـة: العَلَم، والجمع الرايات والراى. يقول: نخبرك باليقين بأنّ نورد أعلامنا الحروب بيضاً، ونرجعهـا حمـراً قد روين من دماء الأبطال.

١٨ـ التراخى: البعد. الغشيان: الإتيان. أى نطاعنهم إذا ابتعدوا عنّا بالرماح ونضاربهم بالسيوف إن اقتربوا منّا.

١٩ـ الشكل: الأنباء الـمـخـتـلـفـة. يعدّد الشاعر القبائل التى عادوها من قبل فقهروها، ويقول: سَل هؤلاء جميعـاً، فهـم يخبرونک عن قوّتنا وبطشنا فى الحروب.

٢٠ـ يقول: كَنَا إذا قاتلناهم، قتّلناهم تقتيلاً، وكانوا هم الجانين على أنفسهم بما جاروا وبما سفهوا علينا.

٢١ـ جاشت: تحرّكت وتململت.

٢٢ـ فىء: ظِلّ. خبطتْ: ضربتْ بشدّة . (المعجم الوسيط، ص٢١٦)

٢٣ـ الحَيْن: الـمـحـنـة والهلاک.

٢٤ـ العقّار: كثير العقر، وذلک للنوق خـاصة من أجل إطعام الجائعين.

٢٥ـ يأتم به: إذا اهتدى به واقتدى. الهداة: جمع هاد، وهو المرشد. عَلَمٌ فى رَأسِهِ نارٌ: مثل يضرب به فى ذيوع الشـهرة، والعَلَم هو الجبل.

٢٦ـ يريد أنّه مات حصن، وكيف يموت مثل حصن والجبال على حالها لم تتصدّع ولم تتفطّر.

٢٧ـ الأديم: من الأرض ما يلى وجهَها.

٢٨ـ جاش: أى ارتفع. الندىّ: المجلس.

٢٩ـ المذانب: جمع المَذْنب، وهو الذنب الطويل، ولعلّه يقصد زوائد الطلل أو ما حوله. حِبرّ وواهب: موضعان.

٣٠ـ رائب: ذو ريَب، وهى صروف الدهر وحوادثه.

٣١ـ ضِراس: جمع ضَروس، الشديدة الـمُـهـلـكـة. العواقب: جمع الـعـاقـبـة، وهى آخر كلّ شىء.

٣٢ـ تسكابا: أى صبّاً، وهو مصدر السكب. راب الدهر: إذا تغيّر عليک وأراک ما تكره. والريب: الشر.

٣٣ـ الأجناب: هم الغرباء، يقال: نعم القوم هم لجار الـجـنـابـة.

٣٤ـ الجود علّته: أى ليست له عـلّـة. وقولها: حوزته، أى حوزته التى يجتاز إليها. الصـدق: الـشجـاعـة. والقـرن: هـو النظير فى الـشجـاعـة.

٣٥ـ يومض: أى يلمع، يريد أنّه تارة يأتى بخير وتارة يأتى بشرّ.

٣٦ـ نَضناضَةً: أفعى منكـرة ، لا تثبـت فـى مكانهـا لنشـاطها وشـرّها، وقيـل التـى تخـرج لسـانها أى تُنَضنِضُـه. الصِّلّ: الـدا هـيـة. الرزايا: جمع رزية، وهى الـمـصيـبـة.

۳۷ـ السفاسف: جمع السفساف، وهو ما دق من التراب فارتفع. السافی: التراب.

۳۸ـ رواسیها: جبالها.

۳۹ـ الطلل: ما شخص من آثار الدیار.

٤۰ـ ذو خال: اسم مکان. الأسحم: الأسود من السحاب. الهطّال: مبالغة فی الهاطل، أی کثیر الهطول.

٤۱ـ الجواء: اسم موضع. عبلة: اسم عشیقته. یقول: یا دار حبیبتی بهذا الموضع تکلّمی وأخبرینی عن أهلک ما فعلوا، ثمّ أضرب عن استخباره إلی تحیتها فقال: طاب عیشک وصباحک وسلمت یا دار حبیبتی.

٤۲ـ الدمنة: بقایا الدار التی ران علیها الرماد. حومانة الدراج والمتثلم: موضعان فی الحجاز.

٤۳ـ التعانیق: اسم لموضع. وکذا الثقل.

٤٤ـ جیداء: طویلة العنق. ریانة: ممتلئة. العکن: ما انطوی وتثنی من لحم البطن سمناً. المفاضة: العظیمة البطن المسترخیة اللحم. وارد: طویل. أثیث: کثیر رکب بعضه بعضاً. الحوَر: شدّة سواد العین مع شدّة بیاضها. أسیل: أملس، مستو. أبلج: واضح حسن. أشمّ: مرتفع. حواء: صفة فی الشفة؛ حمراء تمیل إلی السواد. لمیاء: سمراء الشفة. لثاتها حمش: رقیقة دقیقة. أسنانها مؤشرة: أطرافها مفللة وهی دلالة علی حداثة السنّ. رتل: حسنة الاستواء. مخضّب: مخضوب. رخص: لین. سباط: لینة. برهرهة: شابة بیضاء أو ناعمة. بهکنة: شابة غضّة. رؤدة: ناعمة. خرعوب: شابة بیضاء جسیمة لحیمة. هرکولة: حسنة الخلق والجسم والمشیة.

٤۵ـ المنسدلات: الذوائب المسترخیة. المثانی: الحبال، شبّه شعرها بها. الفواحم: السود.

٤٦ـ الأحوی: ذو الشفتین السمراوین. والأحوی أیضاً صفة للظبی. الشادن: الغزال الذی اشتدّ عوده وقوی حتی استغنی عن أمّه. المظاهر: الذی یلبس شیئاً فوق شیء، ثوباً کان أم عقداً أو غیرهما. اللؤلؤ والزبرجد: ضربان من الحلی التی کانت تتفاخر العرب بلبسها.

٤۷ـ نقی اللون: أی أنّه صاف. لم یتخدّد: لم یتلوّن أو یتغیر لونه. یرید الشاعر أن یصف الوجه کأنّه کَمُلَ ضیاؤه وتمّت نضارته وصفاؤه.

٤۸ـ الغدائر: جمع الغدیرة، وهی الخصلة من الشعر. الاستشزار: الارتفاع والرفع جمیعاً. العقیصة: الخصلة المجموعة من الشعر، والجمع عقص وعقاص.

٤۹ـ هریرة: أمّ خلید کانت جاریة لبشر بن عمر بن مرثد. الرَّکب: موکب الإبل. یبدأ الأعشی قصیدته مودّعاً صاحبته هریرة، فقد تهیّأ الرکب للرحیل، ولم یعد من الوداع بدّ، غیر أنّ الضعف لا یلبث أن یدرکه، فیخاطب نفسه قائلاً: «وهل تطیق وداعاً أیها الرجل؟».

۵۰ـ الغرّاء: البیضاء. الفرعاء: الطویلة الشعر. العوارض: ما یبدو من الأسنان عند الابتسام. الوجی: الحافی. الوحل: الذی یتوحّل فی الطین.

۵۱ـ الأصورة: جمع صوار، الوعاء الذی یحرق فیه المسک. الأردان: مفردها الردن، طرف الکم. شمل: منتشر. یقول: ورائحتها العبقة التی یضوع منها المسک حتی یمتلیء به طریقها حین تسیر، مختلطاً برائحة الزنبق الورد الذی یعطّر أردانها.

۵۲ـ صاک: لصق. العبیر: أخلاط من الطیب تجمع بالزعفران، وقیل: الزعفران.

۵۳ـ تسدّاه: رکبه وعلاه وتبعه. عادنی: أتانی. إیقادها: فترة یقظتها.

۵٤ـ استاده: اختاره.

۵۵ـ رُبَّ بیضة خدر: أی ورُبّ امرأة لزمت خدرها.الرَّوم: الطلب. الخباء: البیت إذا کان من قطن أو وبر أو صوف أو شعر، والجمع الأخبیة. التمتع: الانتفاع. یقول: ورُبّ امرأة کالبیض فی سلامتها من الافتضاض، أو فی الصّون والسّتر، أو

فی صفاء اللون ونقائه، ملازمة خدرها غیر خرّاجة ولاجّة انتفعتُ باللهو بها علی تمکث وتلبث لم أعجل عنها ولم أشغل عنها بغیرها.

٥٦ـ المعشر: القوم، والجمع المعاشر. الحراص: جمع حریص. الإسرار: الاظهار والاضمار جمیعاً.

٥٧ـ منعّمة: ذات نعیم، تعیش فی رفاه وترف.

٥٨ـ الإیاب: الرجوع. البعل: الزوج.

٥٩ـ انظر فی الغزل: شکری فیصل، تطور الغزل بین الجاهلیة والإسلام، ص٢٨ ومابعدها. وسامی الدهان، الغزل منذ نشأته حتی صدر الدولة العبّاسیة، ص٨٩ وما بعدها. و عبد المنعم الخفاجی، الحیاة الأدبیة فی العصر الجاهلی، ص٣٣٣-٣٣٧

٦٠ـ راجع: إمیل ناصیف، المصدر السابق، ص١٢.

المراجع:

١ـ ابن منظور، أبوالفضل جمال الدین محمد بن مکرم، لسان العرب، دار صادر، بیروت، (دون تاریخ).

٢ـ أنیس، إبراهیم وآخرون، المعجم الوسیط، الطبعة الخامسة، مکتب نشر الثقافة الإسلامیة، ایران، ١٤١٦هـ.

٣ـ البستانی، بطرس، أدباء العرب فی الجاهلیة وصدر الإسلام، مکتبة صادر، الطبعة السادسة، بیروت، ١٩٥٣م.

٤ـ البستانی، فؤاد أفرام، المجانی الحدیثة، انتشارات ذوی القربی، الطبعة الرابعة، قم، إیران، ١٤١٩هـق. ـ ١٩٩٨م.

٥ـ الحتّی، حَنا نصر، شرح دیوان الأعشی الکبیر، الطبعة الثانیة، دار الکتاب العربی، بیروت، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

٦ـ حرب، طلال، شرح دیوان المهلهل بن ربیعة، بیروت، دار العالمیة، (دون تاریخ).

٧ـ الخفاجی، محمد عبد المنعم، الحیاة الأدبیة فی العصر الجاهلی، الطبعة الأولی، دارالجیل، بیروت، ١٤١٢هـق./ ١٩٩٢م.

٨ـ الرافعی، مصطفی صادق، تاریخ آداب العرب، الطبعة الأولی، دارالکتب العلمیة، بیروت، ١٤٢١ هـق./ ٢٠٠٠م.

٩ـ رشاد، أحمد، شرح دیوان حاتم الطائی، الطبعة الأولی، دار الکتب العلمیة، بیروت، ١٤٠٦هـق./ ١٩٨٦م.

١٠ـ الزوزنی، عبدالله الحسن بن أحمد، شرح المعلقات السبع، الطبعة الثالثة، المکتبة العصریة، بیروت، ١٤٢١هـق./ ٢٠٠٠م.

١١ـ ـــــــ، شرح المعلّقات السبع، منشورات أرومیة، قم، إیران، ١٤٠٥هـق.

١٢ـ شامی، یحیی، أروع ما قیل فی الفخر، (د. ط)، بیروت، دار الفکر العربی، (دون تاریخ).

١٣ـ شکری فرحات، یوسف، شرح دیوان الصعالیک، الطبعة الأولی، دار الجیل، بیروت، ١٤١٣هـق./

۱۹۹۲م.
۱٤ـ الضبّی، المفضل بن محمد بن یعلی، المفضلیات، تحقیق: أحمد محمد شاکر وعبد السلام محمد هارون، الطبعة الثامنة، دار المعارف، القاهرة، (دون تاریخ).
۱۵ـ طلیمات غازی والأشقر، عرفان، الأدب الجاهلی، الطبعة الأولی، حمص- سوریا، دار الإرشاد، ۱٤۱۲هـق./ ۱۹۹۲م.
۱٦ـ طمّاس، حمدو، دیوان الخنساء، الطبعة الثانیة، دار المعرفة، بیروت، ۱٤۲۵هـق./ ۲۰۰٤م.
۱۷ـ ــــــــــ شرح دیوان النابغة الذبیانی، الطبعة الثانیة، دار المعرفة، بیروت، ۱٤۲٦هـق./ ۲۰۰۵م.
۱۸ـ ــــــــــ شرح دیوان زهیر بن أبی سلمی، الطبعة الثانیة، دار المعرفة، بیروت، ۱٤۲٦هـق./ ۲۰۰۵م.
۱۹ـ عبد الستّار، عبّاس، شرح دیوان النابغة الذبیانی، الطبعة الثانیة، دارالکتب العلمیة، بیروت، ۱٤۰٦هـق./ ۱۹۸٦م.
۲۰ـ القیروانی، ابن رشیق، العمدة فی محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقیق: محی الدین عبدالحمید، الطبعة الثالثة، مطبعة السعادة، القاهرة، ۱۹۵۹م.
۲۱ـ المجمع الثقافی، الموسوعة الشعریة، قرص مدمّج، الإمارات، ۱۹۹۷- ۲۰۰۳م.
۲۲ـ مجمع اللغة العربیة فی القاهرة، المعجم الوسیط، الطبعة الخامسة، مکتب نشر الثقافة الإسلامیة، طهران، إیران، ۱٤۱۷هـق ـ ۱۳۷٤هـش ـ ۱۹۹٦م.
۲۳ـ محمد، سراج الدین، الرثاء فی الشعر العربی، بیروت، دار الراتب الجامعیة، (دون تاریخ).
۲٤ـ ــــــــــ، الغزل فی الشعر العربی، بیروت، دار الراتب الجامعیة، (دون تاریخ).
۲۵ـ ــــــــــ، الفخر فی الشعر العربی، بیروت، دار الراتب الجامعیة، (دون تاریخ).
۲٦ـ ــــــــــ، المدیح فی الأدب العربی، بیروت، دار الراتب الجامعیة، (دون تاریخ).
۲۷ـ المصطاوی، عبد الرحمان، شرح دیوان امرؤ القیس، الطبعة الثانیة، دار المعرفة، بیروت، ۱٤۲۵هـق/ ۲۰۰٤م.
۲۸ـ ناصیف، إمیل، أروع ما قیل فی الرثاء، دار الجیل، بیروت، (دون تاریخ).
۲۹ـ ــــــــــ، أروع ما قیل فی الغزل، دار الجیل، بیروت، (دون تاریخ).
۳۰ـ ــــــــــ، أروع ما قیل فی المدیح، دار الجیل، بیروت، (دون تاریخ).